المكان والجغرافيا في كتابات وفكر العلامة البشير الإبراهيمي

Space and geography in the writings and thought of ALIBRAHIMI

د. سفيان بن صفية

أ. عبد الكريم بلعزوق

جامعة محمد لمين دباغين – سطيف2 (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2020/02/23 **تاريخ القبول:** 2020/03/09

ملخص:

من المتفق عليه أنّه لبناء أيّ حضارة عبر التاريخ لا بدّ من اندماج وتفاعل ثلاث مركبات: الأول وهو الإنسان، الثاني المكان والفاعل الثالث وهو الزمن والوقت.

ولا يخفى على أحد أنّ العلامة البشير الإبراهيمي لم يكن مجرد أديب يتفنن في الكتابة والشعر، بل كان يحمل همّ أمة، ويسعى إلى التجديد الحضاري الذي حمله رفقة ثلة من علماء هذه الأمة في مشرقها ومغربها وفق مجموعة من الأسس.

تأتي هذه الدراسة لكشف اللثام عن أحد الأبعاد المهمة في كتابات البشير الإبراهيمي من خلال كتاب آثار البشير الإبراهيمي، ألا وهو البعد المكاني والجغرافي ومدى حضوره علنا أو مستترا، وذلك بالإجابة عن الأسئلة التالية:

1- ما هو دور الجغرافيا والمكان في صقل شخصية البشير الإبراهيمي وبلورة فكره؟

2- ما مدى حضور بعدي المكان والجغرافيا في كتابات البشير الإبراهيمي؟

الكلمات المفتاحية: البشير الإبراهيمي، الجغرافيا، الإقليم، الحضارة.

Abstract:

It is agreed that the emergence of any civilization throughout history must be due to the integration and interaction of three actors: the first is man, the second is the space and the third actor is time.

EL-IBrahimi was not just a writer who mastered in writing and poetry, but rather carried a nation's concern, and sought civilization

renewal that was carried by the company of a few scholars of this nation in its bright and western according to a set of foundations.
This study aims to reveal one of the important dimensions in the writings of Al-Ibrahimi through the book "Athar of Al-Bashir Al-Ibrahimi", which is the spatial and geographical dimension in the writings of Al-Ibrahimi, by answering the following questions:

1- What is the role of geography and location in refining the personality of Al-Bashir Al-Ibrahimi?
2- To what extent are the dimensions of space and geography employed in the writings of Al-Bashir Al-Ibrahimi?

***Keyswords*:** Al-Bashir Al-Ibrahimi, Geography, Region, civilization.

1/ المكان، الجغرافيا وشخصية الإبراهيمي: "الإنسان ابن بيئته"

كثيرة هي الدراسات التي تناولت الإنسان وتطلعاته الحضارية، وأرجعت ذلك إلى مختلف العوامل الطبيعية الفطرية (ما تعلق منها بالبيئة الطبيعية أو الخصائص الفيزيولوجية والعقلية للإنسان) وهو ما تنادي به المدارس الطبيعية الحتمية ومنها المدرسة الألمانية؛ غير أنّ الكثير من المختصين يعزو ذلك إلى المجتمع وهو الحاضنة لكلّ مشروع حضاري، وهو ما يؤكد أنّ الحضارة مكتسبة ولا علاقة لها بالملكات المكتسبة.

غير أنّ المؤكد هو أنّ للمكان أهمية كبيرة في البناء الحضاري للأمم والمجتمعات وهو ما يؤكده فيلسوف الحضارة ابن خلدون ومن بعده مالك بن نبي[1] اللذان يشترطان المكان كبيئة حاضنة للمشروع الحضاري.

كما أنّ للمكان / موطن النشأة جمالية وحنينا وشاعرية وطمأنينة، فيأوي إليه الإنسان ويحن إليه، فهو مصدر إلهام لأفكاره (شعره ونثره) وهو ما يؤكده الفيلسوف "غاستون باشلار" بالقول: "فبيت الأشياء....يبعث إحساسنا بالبيت لأنّه يجعلنا نضع أنفسنا في أصل منبع الثقة بالعالم ...هل كان العصفور يبني عشه لو لم يملك غريزة الثقة بالعالم؟ القوقعة تجسد إنطواء الإنسان داخل المكان.."[2]

لا يختلف اثنان على أنّ الإبراهيمي من اللبنات الحضارية التي شهدتها البشرية عامة والجزائر والعالم العربي والإسلامي خاصة، ويعد طفرة زمانه رفقة ثلة من أبناء هذه الأمة أمثال ابن باديس والورتلاني....

وهو ما يحتم علينا كمتخصصين في **علم المكان** أن نسلّط الضوء قليلا على هذا البعد ودوره في صقل شخصية البشير الإبراهيمي، خاصة وأن جلّ الدراسات التي تناولت شخصيته أهملت نوعا ما هذا البعد وركزت على البعد الأدبي البلاغي أو الديني الفقهي أو السياسي التاريخي، وما هذا وذاك إلّا صورة منعكسة للبيئة التي رسمت هذه الشخصية القيادية الأدبية، الدينية والتاريخية والسياسية.

1-1- المكان والمجال، الإقليم والجغرافيا مفاهيم ودلالات:

قبل تناول أثر هذه المفاهيم في دراسة شخصية البشير الإبراهيمي يجدر بنا المقام أن نميط اللثام عن بعض المصطلحات المفصلية في هذا المقال العلمي، ليتسنى للقارئ والمستمع فيما بعد استيعاب ما سيتم شرحه.

1-1-1- المكان، الحيز أو المجال:

المكان لغة كلمة مشتقة من الكون وكائن، تعني الوجود وموجود؛ أمّا في الاصطلاح فتطلق للدلالة على قطعة، حيز من الأرض أو مساحة من الأرض تتواجد بها مختلف الكائنات الحية واللاحية.

ظهرت هذه المصطلحات للتعبير عن كلمة "**الأرض**" الفضفاضة المتداولة قبل الثورة المنهجية لمفهوم علم المكان.

المكان أو المجال، بالإنجليزية (space) أما بالفرنسية (Espace) وهما مصطلحان يدلان على مفهوم واحد،إلا أنّ الأول يستخدم في المشرق بكثرة والثاني في المغرب العربي أكثر.[3]

في حين أنّ بيار جورج يعرف المكان وهو أحد المتخصصين في الجغرافيا البشرية في مؤلفه "مصطلحات علم الجغرافيا" وهو مؤلف ضخم يجمع جهود مجموعة من الباحثين الأوربيين في تضليل مختلف المفاهيم الجغرافية: "هو تعيين لمساحة ملموسة ومنفردة ...تمتاز الأماكن بمساحتها التي تكون مبهمة وبالهوية الشخصية التي ترتبط باسم الموقع"[4].

1-1-2- الإقليم: Région

منطقة ذات مساحة كبيرة نسبيا تحوي نوعا من الوحدة والتجانس الداخلي، والذي يختلف عما يوجد في إقليم مجاور، يعبر عنها بيار جورج بأنّها جزء من اليابسة تتمتع بصفة الوحدة نظرا للتجانس الطبيعي، التاريخي، الاقتصادي أو السياسي.(5)

تصنف الأقاليم أحيانا على أنها متجانسة، أو وظيفية أو عامة أو غير ذلك والأقاليم المتجانسة تعرف أحيانا بالإقليم الموحد له خصائص موحدة، ناجمة عن تجانس نسبي وخصائص معينة (إقليم الهضاب العليا، الإقليم الصحراوي...)، أما الإقليم الوظيفي وهو ما يطلق عليه بالإقليم العقدي ويمثله حالة إقليم المدينة، وفية تمثل المدينة عقدة تجارية يعتمد عليها الإقليم من حولها، إذ تنساب تيارات الناس والسلع والمعلومات بين المدينة والإقليم ويخدم ذلك التواصل شبكة نقل على درجة متباينة من الكفاءة، إضافة إلى شبكة الاتصالات بأنواعها، مما يوجد نوعا من الاعتماد المتبادل.

أمّا الأقاليم العامة فتتمثل في أقاليم العالم الرئيسة من منظور معين، تتجسد في كل منها مجموعة من الصفات والخصائص، وليس خاصية أو صفة واحدة مثل إقليم العالم الإسلامي أو المغرب العربي، أو الوطن العربي التي كثيرا ما وردت في مقالات الإبراهيمي.

1-1-3- الجغرافيا (علم المكان):

إنّ المفهوم المتداول لدى عامة المثقفين لمصطلح الجغرافيا هو المفهوم اللغوي التقليدي لها والتي أطلقها العالم إيراتوستين اليوناني بمعنى وصف سطح الأرض(6)، غير أنّ المفهوم الحديث لها وإن أحدث خلافًا بين الجغرافيين أنفسهم إلا أنّه أعمق من ذلك: "هو العلم الذي يصف ويحلل التحولات المكانية للظواهر البشرية والطبيعية على سطح الأرض وترتبط الجغرافيا بالأرض وعلومها، كما ترتبط بالعلوم الإنسانية"(7).

إنّ هذا التطور الإبستمولوجي لعلم المكان جعل الدراسات الإقليمية تمثل قلب وقالب الجغرافيا، كونها ترتقي إلى مستوى يمكن أن تبنى عليه مبادئ علمية(8).

يعرفها البعض بالقول: "الجغرافيا هي علم المجال والمكان، ويشمل موضوعها الظواهر الطبيعية والبشرية التي تشكل أمكنة العالم وبيئاته، ويصف الجغرافيون سبب تحول الأمكنة

بوساطة النص والخريطة، كما يفسرون نشأة هذا التحول محاولين في نفس الوقت الوقوف على دلالاته؛ وتسعى الجغرافيا باستمرار إلى فهم الخصائص الطبيعية والثقافية للأمكنة ومواقعها الطبيعية على ظهر البسيطة[9].

2- **الميلاد والنشأة (الجذور الجغرافية)**: أولاد براهم، جبل عياض، مزيطة، سطيف... (الخصوصية الطبيعية، الهيكلة الاقتصادية للمنطقة. وشخصية الإبراهيمي).

2-1- الضبط الجغرافي لمنطقة الدراسة:

يقول الإبراهيمي في سيرته الذاتية التي سماها (**خلاصة تاريخ حياتي العلمية**) التي كتبها بطلب من مجمع اللغة العربية بالقاهرة عندما انتخب عاملا فيه سنة 1961م بأنّ اسمه هو محمد البشير الإبراهيمي ولد في العاشر من شهر شوال 1306هـ/ 14 يونيو 1889م، في قبيلة أولاد ابراهيم بن يحي بن مساهل (يرجع نسبه إلى إدريس بن عبد الله الجد الأول للأشراف الأدارسة).

موطنه هو السلاسل الغربية المتفرعة من جبل الأوراس، وموقعها الغرب المائل للجنوب من مدينة قسنطينة عاصمة المقاطعة الشرقية للقطر الجزائري.[10]

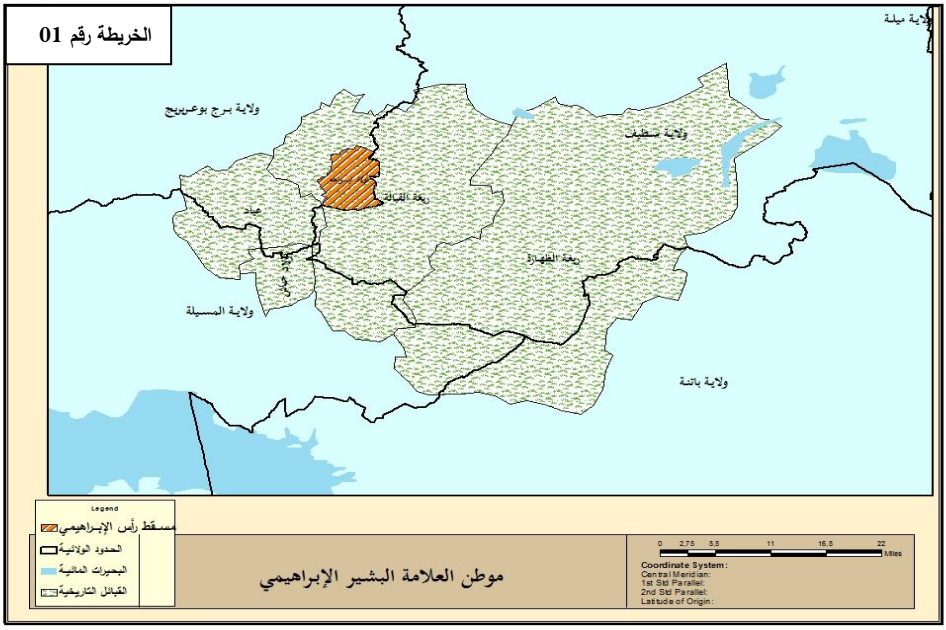

من خلال الخريطة رقم (01) نجد أنّ العلامة ينتمي إلى قبيلة ريغة القبالة من عرش أولاد ابراهيم وهو ما أشار إليه الشيخ في التعريف بنفسه في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهي من القبائل العربية الكبرى التي استقرت في السفح الشمالي لجبال الحضنة، وهي المنتشرة حاليا بين ولايتي سطيف وبرج بوعريريج.

وأرى بأنّ الإبراهيمي قد أخفق في تحديد موطنه الجغرافي بالضبط (طبيعيا)، وذلك بالقول أن موطنه يوجد في السلاسل الغربية للأوراس، غير أنّ موقع عرش أولاد براهيم (أنظر الخريطة رقم1) تقع في السفح الشمالي لجبال الحضنة على ارتفاع حوالي 1200–1300 متر عن مستوى سطح البحر.

تمتاز هذه المنطقة الجبلية بتذبذب المناخ (شبه جاف) وانتشار الجليد وضيق المساحات الزراعية، ما عدا أقدام الجبال وضفاف الأودية متوسطة الصبيب التي يسيطر عليها الكولون.

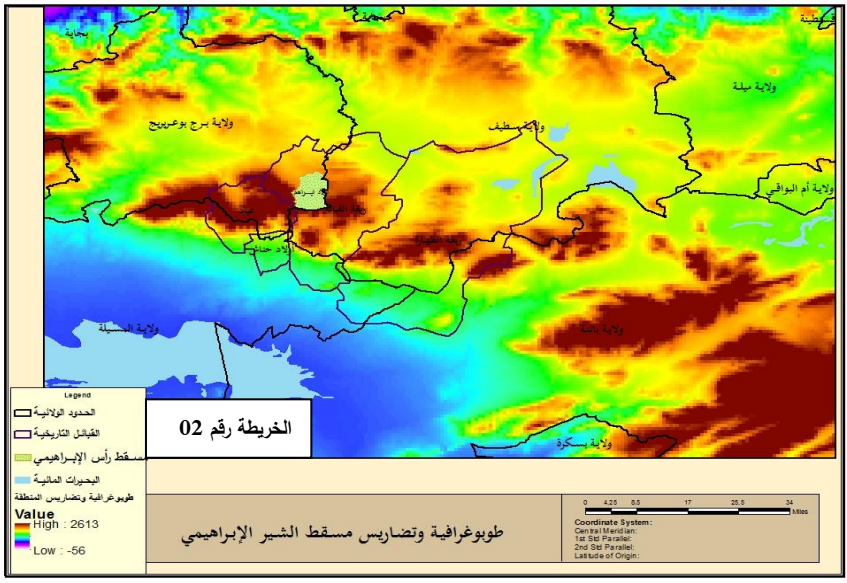

هذه الخصوصية الطبيعية جعلت من عائلة الشيخ تمتهن مهنة الرعي بصفة كبيرة (الأغنام والأبقار كذلك الماعز) مع بعض الزراعات الكثيفة والواسعة لسد رمق أفراد العائلة الكبيرة؛ مما حتم على الشيخ وعائلته ولوج باب التجارة خاصة وأن المنطقة تتوزع بها مجموعة من الأسواق الأسبوعية ما بين برج بوعريريج، وسطيف وحتى قسنطينة والخروب.

إنّ للمكان والمجال الطبيعي دور مهم في صقل الشخصيات وإعدادهم لمهمات قيادية وهو ما دلّ عليه الإبراهيمي نفسه في إحدى مقالاته عن الورتلاني بالقول: "ثم فتح الأستاذ عينيه أول ما فتح على شماريخ الأطلس الأصغر وقممها الشماء، وشناخيبها المتناوحة وغاباتها الطبيعية التي تكسو سطوحها، وغابات الشجرتين المباركتين — التين والزيتون– التي تجلل سفوحها، وعلى الوديان العميقة التي تخترقها هدارة السيول، وعلى مناظر الثلوج التي تكسو تلك القمم ثلث السنة، فاكتسب من كلّ ذلك هدوء التأمل، ومتانة الفكر وصلابة العقيدة وركانة العقل وثبات الصبغة ووعورة الجد حتى لا محل معه لهزل ولا لهزال، وإن التوعر لألزم الخلال للرجل، لا سيما في هذا العصر الهازل المتخنث"[11].

والأمر نفسه يؤكده غاستون باشلار في كتابه "جماليات المكان" حينما يقول:"... لكون البشر يأتون إلى هذا العالم في مكان لا يستطيعون في البداية أن يعرفوا حتى اسمه، ولم يعرفوه من قبل، ولأنهم في مكان مجهول لا اسم له يكبرون ويتحركون، ثم يتعرفون المكان ويستدعونه بحب ويسمونه بيتا، وفيه يلقون جذورهم وإليه يتوجهون بحبهم، وحين يبتعدون عنه يغنون حنينهم إليه ويكتبون عنه أشعار شوق ... إنّ التربة التي غرست فيها الصدفة النبتة الإنسانية ليس هي المهمة، وعلى أرضية هذا الفراغ تنشأ القيم الإنسانية...."[12].

إذن فمكان النشأة الأولى للإنسان له دور بارز في صقل الشخصية، لما يحاط به من حنين وانجذاب لدى هذا الإنسان.

2-2- المحطات المكانية المفصلية في حياة الإبراهيمي:

يجزم جلّ الباحثين بأن الإبراهيمي من بين الشخصيات التي يصدق عليها حديث النبي (ﷺ): (إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا)، وهذه الميزة التي امتاز بها الشيخ ما هي إلا انعكاس للمحطات الجغرافية التي أثرت تأثيرا كبيرا في صقل الشخصية الإلهامية المبدعة للإبراهيمي، والتي يمكن أن نلخصها في حوالي 08 إلى 10 محطات كما هو وارد في الخريطة رقم (03).

* **المحطة الأولى**: وفيها مسقط رأس البشير الإبراهيمي، والتي مكث فيها من 1889 إلى 1911، وهي المحطة الأولى الملقحة والمطعمة لشخصية الإبراهيمي الصلبة، المكافحة المصلحة، المتاجرة.

إنّ هذه المحطة عبارة عن منطقة جبلية صعبة نوعا ما جعلت من الإبراهيمي شخصية مكافحة، صلبة، تمتهن التجارة من جهة ومن جهة ثانية هي البيئة الثقافية الحاضنة للإبراهيمي والمتمثلة في أبناء عمومته، خاصة عمه الذي ساهم في تلقينه مبادئ القرآن الكريم، وتطعيمه بأمهات كتب اللغة والفقه مما أسهم في تنشئته تنشئة سليمة محافظة.

يقول الإبراهيمي عن أهمية هذه المحطة في إعداد الرجل الصالح، وذلك في حديثه عن رفيقه الورتلاني: ".. وأما الإعداد فيبدأ من البيت الذي ولد، والقرية التي فيها درج، والمحيط الذي فتح فيه عينيه، والمضطرب الذي اضطرب فيه طفلا وشارخا، والنشأة التي عليها نشأ... وإذا كان الطفل يتقلّب بين أحضان الصالحين، وحجور الصالحات، ويرجع بين

أخدان صباه، وعشراء داره، وزملاء ملاعبه إلى طفولة طاهرة راشدة تحرسها أعين المجتمع كله فأخلق به أن يكون مثالا للإنسان الكامل"[13].

ويؤكد الشيخ الإبراهيمي مرة أخرى على أهمية هذه المرحلة في تكوين الشخصيات لما قارن بينه وبين ابن باديس:

"وُلِدتُ أنا والشيخ عبد الحميد بن باديس في سنة واحدة وهي 1889م فاتفقنا في الميلاد زمنا واختلفنا مكانا وهو شيء لا يضر ما دام الوطن واحدا ... أما أنا فقد ولدت بقرية أولاد سيدي إبراهيم من نواحي سطيف، فنشأتُ في بيئة اجتماعية تختلف كثيرا عن بيئة الشيخ عبد الحميد بن باديس، ولكن الطابع التربوي والتعليمي يومئذ يكاد يكون واحدا في تنشئة الأطفال لدى الأسر التي بقيت تنتسب إلى الدين وتحتفظ ببقايا من علومه..."[14].

* **المحطة الثانية:** وهي منطقة عبور وهي القاهرة التي لم يمكث بها سوى ثلاثة أشهر فقط لكن كان لها أثر كبير في شخصية البشير الإبراهيمي الشاب، وهي موطن العروبة، وعاصمة من عواصم الوطن العربي التي لها تأثير كبير في صنع القرار العربي سواء سياسيا أو ثقافيا، وهناك عرف أشهر رجالها من أمثال الشيوخ :سليم البشري، ومحمد بخيت، وعبد الغني محمود، ويوسف الدجوي، والشاعرين :أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم[15].

* **المحطة الثالثة (1917/1912):** المدينة المنورة مدينة النبي (ﷺ) وهي عاصمة إسلامية مهمة في مسار الإبراهيمي، مكث فيها أزيد من خمس سنوات رضع فيها لبن تعاليم الإسلام الوسطي واحتك هناك بشيوخ العلم والدين من المملكة وخارجها كونها قبلة للحجاج والمعتمرين من جميع أقطار العالم الإسلامي.

هذه المحطة مهمة جدا في المسار الإصلاحي في الجزائر عامة وللإبراهيمي خاصة، كونها المحطة التي لقحت فيها فكرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

* **المحطة الرابعة دمشق (1917– 1920)**: لجأ الشيخ إلى دمشق وهي من العواصم العربية المهمة في الوطن العربي والإسلامي أثناء الحرب العالمية الأولى، بعد عجز الدولة العثمانية عن تأمين منطقة الحجاز والمدينة في الغذاء.

هذه الرقعة الجغرافية العربية سمحت للشيخ التعمق في تعاليم اللغة العربية، وحضور الدروس الفقهية في المسجد الأموي ولقاء شيوخ مميزين على الصعيد العربي والإسلامي.

* **المحطة الخامسة (1920–1931)**: بعد مسار 10 سنوات في أهم عواصم العالم العربي الإسلامي (القاهرة، المدينة المنورة، دمشق) عاد البشير الإبراهيمي إلى موطنه الأصلي محملا بزاد علمي كبير في اللغة والفقه والفكر الإصلاحي، حاملا مشروعَ إصلاح المجتمع الجزائري، رفقة ثلة من العلماء الربانيين في مقدمهم ابن باديس.

في هذه المرحلة عمل الإبراهيمي على نسج شبكة من العلاقات بين علماء هذا القطر في ظلّ ظروف عالمية تسمح بذلك (عصبة الأمم وفترة ما بين الحربين)، لتأسيس النواة الأولى للجمعية وانتشال المجتمع من الجهل والعبودية الثقافية الفرنسية.

ولتأمين ظروف العيش عمل الشيخ في التجارة وهي المهنة التي يمارسها أبناء بيئته (أولاد ابراهم) خاصة في المنتجات الفلاحية والشحوم في مختلف الأسواق الأسبوعية القريبة من مسقط رأسه، وهي فرصة للتعرف على أوضاع المجتمع وتسويق الفكر الإصلاحي للعامة والخاصة، وأداة لتمويه المستعمر الفرنسي.

* **المحطة السادسة (1931–1940)**: بعد التأسيس الفعلي للجمعية عمل الشيخ رفقة ابن باديس على الجهر بالدعوة الإصلاحية في الجزائر، بتأسيس المدارس والمعاهد وتعليم أبناء المجتمع الجزائري بنين وبنات.

هذه المرحلة كذلك كانت مفصلية في شخصية البشير الإبراهيمي في تحمل المسؤولية (نائب رئيس الجمعية) ومدير معهد دار الحديث بتلمسان (عاصمة الزيانيين)، "فأبقينا الشيخ ابن باديس في قسنطينة .. وخصصنا الشيخ الطيب العقبي بالجزائر .. وخصصوني بمقاطعة وهران، وعاصمتها العلمية القديمة تلمسان"[16]. فكان له تكوين ذاتي في التسيير

والإدارة من جهة وتكوين موجه من طرف ابن باديس، ونجح في ذلك إلى أن زج به في سجن آفلو من طرف المستعمر الفرنسي عند بداية الحرب العالمية الثانية.

* **المحطة السابعة (1943–1945)، (1945– 1950)** مرحلة تحمل العبء الإصلاحي وذلك بعد وفاة الشيخ ابن باديس في 1940، انتخب غيابيا رئيسا للجمعية من طرف زملائه، فبعد خروجه من السجن باشر أعماله الإصلاحية في الجزائر العاصمة بدءا بمناورة الاستعمار من جهة، ومن جهة ثانية العمل على جلب الدعم المالي والمعنوي من مختلف الأقطار العربية لنشر المدارس والتعليم الذي باشره سابقا رفقة ابن باديس، فلم تكن هناك قطيعة بين المرحلة الباديسية والإبراهيمية.

في نهاية هذه المرحلة قام الشيخ بزيارات إلى الضفة الشمالية للمتوسط وبالضبط فرنسا لحضور المؤتمر الداعم للجزائر، إذ شرح فيه أفكار الجمعية الإصلاحية طالبا الدعم المالي والمعنوي من الجيران والأصدقاء كما كانت له فرصة التقاء بعض التيارات الفرنسية والأوربية.

* **المحطة الثامنة (قاهرة المعز) 1952– 1962:** هناك حنين بين عروبة القاهرة ومصر وعروبة الإبراهيمي، لذلك فضل الشيخ الاستقرار بالقاهرة مدة تزيد على عشر سنوات ظنا منه أن استقراره فيها يسهم في بناء الجمعية والدعم الإصلاحي للمجتمع الجزائري، خاصة وأن القاهرة هي إحدى عواصم صنع القرار العربي الإسلامي.

لذا عمل طول هذه المدة على الدعم المالي، المادي والمعنوي للجمعية لإرساله للجزائر من جهة واستقبال الطلبة الجزائريين وتسهيل التحاقهم بالقاهرة والزيتونة، فكان له ثمار يانعة بتخرج الآلاف من الطلبة الجزائريين محملين بشهادات عليا من الأزهر والزيتونة، حملوا مشعل الجمعية وإصلاح المجتمع الجزائري المفرنس.

* **المحطة التاسعة (1962– 1965) مرحلة العزلة:**

خلال هذه المرحلة وبعد سوء تفاهم بين الشيخ وقادة النظام آنذاك اقتنع الشيخ أن مهمته قد انتهت، فلجأ إلى العزلة والعبادة في منزله إلى أن وافته المنية.

3- كتابات الإبراهيمي والحس الجغرافي، أيّة علاقة؟

بعد قراءاتي المتأنية لآثار البشير الإبراهيمي، لمست حسا جغرافيا متجذرا في فكر وكتابات العلامة وذلك من خلال تمرسه ببعض المصطلحات الجغرافية، في استخدامه للمناهج والوسائل الجغرافية في التحليل والكتابة.

3-1- **المنهج الجغرافي وكتابات الإبراهيمي** (الموقع بين مدرستي الحتمية والإمكانية):

يعرف أهل الحداثة من الجغرافيين والمهيئين الجغرافيا بأنها علاقة الإنسان بمجاله، إلا أنّ هذه المعادلة في جميع حلولها لا تساوي الصفر.

خاصة وأن هناك مدارس جغرافية بعضها ترجع الإنسان ودوره الكبير في التغلب على المجال (المدرسة الإمكانية)، في حين أن المدارس الكلاسيكية وخاصة المدرسة الألمانية تركز كثيرا على فعل المجال الطبيعي أو ما يسمى بالركيزة الطبيعية وتأثيرها على الإنسان.

من خلال كتابات الإبراهيمي عن المجال والمكان والتي جمعت في كتاب آثار البشير الإبراهيمي، نجد أن له آراء بهذا الشأن تتلخص في:

أ- أنّ على الإنسان بما حباه الله من طاقات فكرية، عقلية وجسدية أن يتدخل في المجال الطبيعي ويتحكم فيه، نستشف ذلك من خلال قوله: "...وثمراته هي ما ترون من أعمال تعجز القوة الفردية عن إتمامها، وما ترونه من مصانع تخرج المعجزات، وما ترون من تقريب للأقطار وإخضاع للبحار، وما ترونه من استخراج مواهب الأرض التي لا يستقل الفرد بإخراج جزء منها ولو جمع مواهبه، وما ترونه من تسلط جبري على قوى الطبيعة واستخدامها بكل سهولة."[17]، ويؤكد على هذه الفكرة في مناسبة أخرى في خضم رده عن الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي في الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي عن ميلاد الجزائر: "...هذه الفكرة هي أنّ الجزائر ليست وطنا موجودا وإنما هي وطن يتكون .....كأنهم يفسرون الأوطان القائمة على خصائصها الطبيعية ومدلولاتها العرقية بالمعاني الجيولوجية، فهي تتكون على نحو مما تتكون المعادن في مئات السنين أو في آلافها."[18].

ب– كما أن الإبراهيمي يركز في كثير من مقالاته على أنّ عصب التهيئة المجالية والتنمية المحلية هي اكتساب المال وصرفه في مصارفه المطلوبة، ولا يتأتى ذلك إلا بمزاوجة المال بالعلم:

- ألا فليعلم كل من لا يريد أن يعلم أن سوق المال اليوم معترك أبطال وأن في جوانبه رماة ونحن الهدف، وأن مكان المال من الحياة مكان الوريد من البدن، وأن الزمان قد دار دورته وقضى الله أن يصبح المال والعلم سلاحين لا يطمع طامع في الحياة بدونهما[19]
- وهذا العلم هو قرين المال وأخوه في تكوين الحضارة الوقتية تفيد المزاحمة فيه ولا تضر وفي هذا المقام لا يجب أن نغتر بالموجود ولا نقنع بطرق الاستثمار التي قلدنا فيها غيرنا.... فوراء هذه الأمة الضعيفة طوائف هي أقوى مراسا وأصح عزائم في المزاحمة على المال وطوائف هي أشد سواعد لجمع المال، وطوائف هي أبصر من زرقاء اليمامة بمواقع المال وطوائف لم تكفها الجهود الفردية حتى ظاهرتها بالآلاف والملاين من أمثالها، وطوائف لم تكفها القوى البدنية حتى ظاهرتها بالقوى العقلية والكيميائية، كل ذلك لأجل المال وفي سبيل المال ...

3-2- التوزيع المجالي (عمق المنهج الجغرافي عند الإبراهيمي):

تعتبر الدراسات المجالية لبّ الدراسة الجغرافية، أي توزيع الظواهر الطبيعية والبشرية في رقعة جغرافية معلومة الحدود، واستنباط الاختلافات والفروقات المجالية فيما بينها ثم بعد ذلك تحليلها وتفسيرها باستخدام طرق وأدوات معينة.

ولعل أهم هاجس كان ينتظر الإبراهيمي رفقة ابن باديس استكشاف المجال الجزائري من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه:"إنّ الجمعية لا تستطيع عمل شيء مثمر وتنفذه بدون الشعب الفرعية، فهي بمثابة الشرايين التي تحمل مادة الحياة للجمعية."[20].

وأحسن طريقة وأداة لذلك هي "الخريطة"، والتي تعد من أبرز وسائل الجغرافيا وأسهل الطرق لاستكشاف الفروقات المجالية للمجالات المدروسة.

وفي هذا الشأن يقول البشير الإبراهيمي في القانون الأساسي للجمعية المادة 71: تضع الجمعية **خريطة للقطر الجزائري** تبين فيه: (خرائط موضوعاتية)

– **مناطق العمل**، تتبع فيها فهارس (مفتاح للخريطة) تبين فيها:

1- خصائص كلّ منطقة وما يغلب عليها من أخلاق صالحة وفاسدة.

2- درجة استعدادهم للخير والشر وأسباب ذلك.

3- ما يكثر في كلّ منطقة من البدع والتقاليد الموروثة.

4- أثر تلك التقاليد في مجتمعه الخاص (عامل التأثير).

ويردف البشير الإبراهيمي قائلا عن فوائد هذا العمل: "فإذا أنجزت هذه الجمعية هذا العمل تكون قد مهدت الطريق لنفسها وأنارت السبيل، وربحت من الوقت في المستقبل أضعاف ما تضيعه في وضع هذه الخريطة وملحقاتها، وأمنت على أعمالها أن تسير على غير منهاج وعلى أوقاتها أن تضيع عبثا وعلى أموالها أن تنفق في غير مفيد."[21]

– المادة 77 من قانون الجمعية: تسعى الجمعية في تكثير عدد المكاتب القرآنية على التدريج في أهم المراكز.[22]

- **التوزيع المجالي لبعثات الجمعية:**

– في الزيتونة 1700 تلميذ، القرويين بفاس 200 تلميذ، 40 تلميذ في مصر، 11 تلميذ في العراق، 10 تلاميذ في سوريا، ومكتب مراقبة البعثات مقره القاهرة.

– إنشاء المكتب الإسلامي في باريس (يضمّ 35 مركزًا، باريس لوحدها تضم 17 مركزا) يستهدف الحفاظ على دين العمال المسلمين الجزائريين الذين يبلغ عددهم 500 ألف والأطفال 30 ألف طفل.

– إنشاء 70 مسجدا في المدن وعمرتها بالأئمة الصالحين والمدرسين.

– إنشاء ما يقارب 80 ناديا للعلم والمحاضرات، ولتجذب الشبان من المقاهي.[23]

4- الإقليم، الأقلمة والهم الفكري للإبراهيمي

4-1- معايير التصنيف الإقليمي عند الإبراهيمي:

كما سبق وأن عرفنا الإقليم بأنّه رقعة من الأرض تمتاز بصفات متجانسة يختلف عن باقي المناطق وله حدود معلومة؛ وللتقطيع الإقليمي معايير عدة تستخدم من طرف الجغرافيين والمهيئين، قد تكون طبيعية، بشرية، اقتصادية.

من خلال مقالات ومواقف الإبراهيمي المرصودة في كتاب "الآثار" نجده تحدث كثيرا عن هذه الأقاليم: منها الوظيفية كالمدينة والريف والسياسية كالجزائر، المغرب العربي الوطن العربي والعالم الإسلامي.

أولا/ الأقاليم الوظيفية:

نعني بالأقاليم الوظيفية المجالات الجغرافية التي ترسم حدودها العلاقات والخدمات الوظيفية التي تقدمها مركباتها، منها المدينة والريف.

يعبر عن هذه الأقاليم البشير الإبراهيمي بالاجتماع العمراني "...وأن المعاملة مبنية على مراعاة مصالح البشر ونظام اجتماعهم العمراني..."[24].

أمّا ميزة هذه التجمعات العمرانية فقال في حديثه عن ذلك: "... هذه الحياة العامة فرقت القبائل والشعوب من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون، فكنّا من غرقاها وطغى تيارها حتى دخل على الحضري قصره وعلى البدوي قفره..."[25].

"على الحضري قصره" أي المنازل والقصور وهي إحدى مركبات المجالات الحضرية، في حين أنّ المجالات الريفية تمتاز بالمنازل المتواضعة والأكواخ وهي ميزتها في زمن الإبراهيمي.

في هذه الفقرة نستشف بعض الفروقات بين المدينة والريف فالأولى تتمركز فيها المنازل والقصور في حين أن الثانية القفار يعني الخلاء وانتشار مظاهر البداوة...

وفي مقام آخر يلح البشير على مواكبة طبيعة الاجتماع العمراني العالمي في قوله:"سارت الأمم في مناهج العمران عنقا فسيحا ونحن في نومة أصحاب الكهف والرقيم، غفلنا عن أخذ الأهبة للتزاحم الاقتصادي، فأدركنا سيله الجارف وسدت علينا منافذ الحياة..."[26]

ثانيا/ الأقاليم القطرية:

نقصد بالأقاليم القطرية الوحدات السياسية والعرقية التي تقسم وتصنف وفقها الأقاليم وبالنظر إلى الاهتمامات الإصلاحية الإبراهيمية فهي تمتد من المحيط إلى الخليج، وبتركيز أكثر على الجزائر تجسيدا لفكرة بن باديس عندما قال: لمن أعيش؟ أعيش للإسلام والجزائر.

من خلال قراءاتي لآثار البشير الإبراهيمي، استنتجت أنّ الابراهيمي يتحدث عن ثلاثة معايير في التصنيف الإقليمي:

أ/ الإقليم الجزائري (القطر الجزائري):

إنّ الإبراهيمي يؤمن إيمانا يقينيا أنّ القطر الجزائري موطن موجود منذ الأزل فهو عاش فيه ولأجله[27]، وذلك في رده عن موريس طوريز الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي في الثلاثينات والأربعينات[28]، ويؤكد مرة أخرى على أن العقائد والفوارق والاعتبارات ذابت في هذا القطر: " ...تمثلت فيه الأمة روحا وجسما، وتلاشت فيه الفوارق الاعتبارية ...ففيه التقى، عن فكرة وعقيدة، الجزائري بأخويه القسنطيني والوهراني، وفيه اجتمع – على تلك الفكرة– المصلحون والطرقيون وعلماء الدين ورجال السياسة، والشيوخ والشبان والتجار والفلاحون والعمال، جمعت الكل صفتا الإسلام والجزائرية..."[29]

وعن انتماءات هذا القطر فقد قال في أحد المقالات: "الشعب الجزائري فرع من فروع الدولة العربية الموروثة، لم ينس أبويه، ولم يتنكر لنسبه ... ولم تنحرف الضاد عن مجراها في لسانه ... وهو – مع ذلك– عضو في الأسرة الإسلامية الكبرى لم يبتغ لدينه بديلا."[30] وبذلك ظلت الجزائر بحدودها وشعبها وسيادتها المستمدة من التاريخ الوطني مرتبطة بمقومات العروبة والإسلام.[31]

نستشف من مقالات الإبراهيمي أنّ القطر الجزائري قطر (وطن) موجود منذ الأزل له حدوده، تاريخه وخصوصيته الشعبية والعقائدية، كما أن له جذورا ممتدة شرقا وغربا (الإنتماء العربي الإسلامي وكذلك المغاربي)، وفي ذلك تفنيدا لما كان يروج في وسائط الإعلام الفرنسية.

ب/ المغرب العربي (الشمال الإفريقي):

يعدّ هذا الإقليم من أكثر الأقاليم ترددا لدى الإبراهيمي، وذلك نابع عن قناعة منه أنّ هذه الرقعة الجغرافية رقعة متجانسة، تشكّل كيانا واحدا، لسانا وفكرا وعقيدة وجغرافية.

وأمّا عن مركبات إقليم المغرب العربي يفصل الشيخ في رسالة بعث بها إلى أبناء العروبة: "إنّ في هذا الشمال بأقطاره الثلاثة كنوزا من تراث العربية والاسلام ... أي أبناء العروبة إنّ بيننا وبينكم صلات من اللغة والدين، وأرحاما مرعية من الجنس والخصائص ..."[32]

ويقصد بالأقطار الثلاثة: الجزائر، تونس والمغرب؛ وهي أقطار تتكلّم العربية وتدين بالإسلام، بل أكثر من ذلك بها كنوز العربية والإسلام وهي أواصر التلاحم والارتباط بين المشرق والمغرب الإسلامي، عكس ما تروّجه الرواية الكولينيالية التي تريد ربط هذه المنطقة بروما وأمجادها. يقول في هذا الشأن:" المغرب العربي وحدة لا يتجزأ، جمعها الإسلام على تعاليمه الروحية السامية، وجمعتها العروبة على بيانها وآدابها.....المغرب العربي جمعته يد الله وربطته برباط واحد وهو الإسلام والعروبة ومع الإسلام القوة ومع العروبة الإباء والشمم فلا تفرقه يد الشيطان، وكل من سعى في التفرقة بين أبنائه –ولو من أبنائه– فهو شيطان لا يدفع باللعن والاستعاذة كما يدفع شيطان الجن، وإنما يدفع بالطرد من الحظيرة، فإن لم يندفع فبإعدامه من الوجود."[33]

ويردف في نفس السياق في مقام آخر: "ولو كان أجدادنا على شيء من فهم معنى التضامن الإسلامي لما ترك المراكشي والتونسي الجزائر تتخبط وحدها في المقاومة ولنبهتهم ضمائرهم أن هذا الغول إن تغدَى بالجزائر فسيتعشى بتونس ومراكش ...."[34]، وذلك كون هذه الأوطان وطنا واحدا، وأنه إذا تداعى منه جزء تداعى له كامل الجسد بالسهر والحمى، وهو ما نلمسه في الرسالة التي بعث بها مكتب الجمعية للسفير الفرنسي بالقاهرة جراء المعاملة السيئة التي تعرض لها الزعيم الحبيب بورقيبة من طرف السلطات الفرنسية: "باسم الشعوب التي تجمعها العروبة ويظللها الإسلام في المغرب العربي وتوحد بين قلوبها المنصبة عليها من حكومتكم، نرفع احتجاجنا الصارخ واستنكارنا العميق للمعاملة القاسية التي يعامل بها الزعيم الحبيب بورقيبة لا لشيء إلا لأنه يطالب بحقوق بلاده."[35]

إذن فمنطقة المغرب العربي منطقة موحدة جغرافيا تمتاز تتكلم شعوبها بلسان واحد وهو اللسان العربي، وتدين دينا واحدا وهو الإسلام، لذلك فمن غير الجائز تقسيم هذه الشعوب بعضها عن بعض أو اجتثاثها من جذورها العربية الإسلامية.

ج/ الوطن العربي:

إنّ البشير يؤمن إيمانا قاطعا بأنّ الوطن العربي جسد واحد بجناحين أحدهما ممتد إلى الشرق والثاني إلى الغرب (المشرق والمغرب العربيان)، تربطهم قواسم مشتركة لخصها في قوله: "هذا بالنسبة لأوطاننا الخاصة، أما وطننا العام فهو كلّ، والكلّ بأجزائه، وهذه الأجزاء كلها جمعتها الآلام، فجمعتها الآمال..."[36].

وفي مقام آخر يقول: "..أليس من العار أن يكون للعرب عشر وطنيات؟ أليست هذه الوطنيات بمثابة تقسيم الخبزة الواحدة إلى لقم....إن الجزائر والشمال الإفريقي كله فلذة من كبد الإسلام، وقطعة من وطن العروبة الكبير .... وإن هذا الوطن هو أحد أجنحتكم التي تطيرون بها إلى العلا، وإنه متصل بكم اتصال الكف بالساعد... إنّ هذا الوطن امتداد لوطنكم الأكبر .... أي أبناء العروبة إنّ بيننا وبينكم صلات من اللغة والدين، وأرحاما مرعية من الجنس والخصائص..."[37]

وعليه فالمؤامرة الاستعمارية بتقسيم الوطن العربي إلى دول ودويلات نجحت، إلا أنّ اللحمة بين أبناء الوطن العربي لا تزال قائمة، والقواسم المشتركة من دين ولغة وعادات وتقاليد لا تزال متجذرة في قلوب هذه الشعوب.

كما أنّ للشيخ مواقف وجهود مشرفة في جمع شمل المشرق العربي ومغربه وداعما للاجتماعات الموجهة للوحدة العربية: "أيها الإخوان المتلاقون على هوى الوطن الجامع وحبه، العاملون على إعلاء شأنه وجمع أجزائه؛ بلغتنا أخبار اجتماع أبناء الشرق العربي بأبناء المغرب العربي في دار، فعجبنا حتى انتهى العجب إلى أقصاه، وطربنا حتى أخرجنا الطرب عن طور الاعتدال، ثم رجعنا إلى الفال، نزجي به الآمال."[38]

وينبه الشيخ في مقام آخر إلى أنّ مؤشر العروبة الذي قسّم به هذا الإقليم "الوطن العربي" ليست صفة لجنس أو نسب وإنما لها معان عميقة يجب على أبناء العروبة

الإحساس بها: "أيها العرب: ساء مثلا من أفهمكم من معاني العروبة أنها نسبة إلى جنس واعتزاء إلى جد والتصاق برقعة من الأرض...وخذوا العروبة على أنها ليست جلدة تسمر أو تصفر ولا بلدة تغبر أو تخضر... وإنما هي بناء مآثر وإعلاء أمجاد، وإنما هي خلال تفتح عن أعمال، وإنما هي عزائم لا تعرف الهزائم، وإنما هي طموح وجموح.... وإنما هي رأي أصيل وفكر جزيل ولسان بالبيان بليل وعقل هو على الحكمة دليل وقلب للجرأة خليل فجميع هؤلاء هو العروبة وجامع هؤلاء هو العربي..."[39].

فالعروبة إذن ليست شعرا يغنى به، أو معيارا أو مؤشرا يفضل به الناس وإنما هي قيم يعتز بها ورقعة من أرض ننتمي إليها.

ثالثا/ العالم الإسلامي (الإقليم الشمولي):

يعتبر العالم الإسلامي في فكر الإبراهيمي الحاضنة الكبرى والإقليم الشمولي لأبناء العروبة بجناحيه الشرق والغرب، كما أنّه ضمّ أمما وشعوبا مختلفة الأجناس والألوان واللغات. "... بسيرته الأولى إلى جهات المعمورة الأربع وانتظم أمما مختلفة الأجناس واللغات والطبائع والألوان، فأصبحت تلك الأمم – على ما بينها من تباين خلقي– أمة واحدة مطبوعة بطابع واحد وهو طابع الإسلام ومصبوغة بصبغة واحدة وهي صبغة الإسلام"[40]

ومن ثمة فالإسلام هو معيار التوحيد الإقليمي، على الرغم من اختلاف شعوبه في اللغة لون البشرة، العادات والتقاليد ...

وقد مارس الشيخ هذه الفكرة "امتزاج فكرة الوطن الإسلامي" ودافع عن جوهر قضاياه وهي قضية فلسطين وكذلك بعض القضايا المنتشرة هنا وهناك، يقول بهذا الصدد: "...إننا باسم جمعية العلماء الجزائريين وباسم ثلاثين مليون مسلم في المغرب العربي نتوجه في شدة وإلحاح إلى دولة باكستان الرشيدة التي نفخر بها ونعلق عليها الآمال في إعلاء كلمة الإسلام أن ترجع عن هذه الأحكام التي تزعج نفوس المسلمين، وتطلق سراح المودودي عاجلا لترد الاطمئنان إلى نفوس جميع المسلمين."[41]

"العالمان العربي والإسلامي في هذه اللحظة تشتعل أطرافهما وينصب عليهما البلاء من كل جانب."[42]

وبالتالي فامتزاج العالمين العربي والإسلامي يعدّ أكثر من ضرورة لمواجهة العدو الواحد وهو الاستعمار الأوربي والامبريالية الأمريكية والشيوعية الروسية.

ومع استقلال شعوب العربية والإسلامية في دويلات مقسمة من الشرق إلى الغرب مع بداية موجة التحرر العالمية في أواخر خمسينيات القرن الماضي، تطفو القضية الفلسطينية كقضية جوهرية للأمة العربية والإسلامية، وتستدعي حشد الهمم والسياسات القطرية لنصرة القضية الأم.

خاتمة:

في ختام هذه المقالة التحليلية نجد أنّ البعد المكاني كان حاضرا بقوة في تكوين شخصية الإبراهيمي عبر مختلف المحطات التاريخية التي مر بها مشرقا ومغربا؛ كما أن توظيفه للمناهج الجغرافية المتعارف عليها نابع عن التأثر والتأثير الحاصل بينه وبين المكان من جهة ومن جهة ثانية إدراكه الشديد لهذا المنهج العلمي وأهميته في البناء الحضاري.

الهوامش والإحالات:

(1)– مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، سوريا، 1979، ص44

(2)– غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1984، ص9

(3)– محمد بلفقيه(دت): الجغرافيا القول فيها والقول عنها، (د م) دار النشر العربي الإفريقي، ص22.

(4)– بيار جورج، ألفاظ علم الجغرافيا، ص687

(5)– المرجع نفسه، ص 810.

(6)– سعدون شلال ظاهر و رحمن رباط حسين، فلسفة علم المكان في الجغرافية السياسية، مجلة بحوث جغرافية، العدد 19، ص 57.

(7)– الجغرافيا القول فيها وعنها، ص 12

(8)– ماهر يعقوب موسى، الفكرة الجغرافية لمفهوم الإقليمية، مجلة أهل البيت، العدد الرابع. ص 55

(9)– الجغرافيا القول فيها وعنها، ص 18

(10)– شهيرة بوخنوف، البعد التعليمي في كتاب" عيون البصائر"للعلامة محمد البشير الإبراهيمي جامعة مولود معمري، تيزي وزو، ص 16

(11)– محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، جمع وتقديم محمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1997 ص 150.

(12)– غاستون باشلار، المرجع السابق، ص 75.

(13)– محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ص 150.

(14)– الطاهر الغول، مفهوم الدولة الجزائرية في فكر الحركة الوطنية 1919–1654، مذكرة ماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة حمة لخضر، الوادي، السنة الجامعية 2013–2014، ص 59.

(15)– المرجع نفسه، ص 60.

(16)– المرجع نفسه، ص 62.

(17)– محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ص 51.

(18)– المصدر نفسه، ص 379.

(19)– نفسه، ص 55.

(20)– نفسه، 102

(21)– نفسه، ص 86.

(22)– نفسه، ص88.

(23)– نفسه، 255.

(24)– نفسه، ص52.

(25)– نفسه، ص51.

(26)– نفسه، ص 57.

(27)– عبد القادر معمر الدين، أشكال التعبير الأدبي عند الإبراهيمي، مذكرة ماجستير، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، السنة الجامعية 2010–2011، ص 03.

(28)– محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، 379.

(29)– نفسه، 231.

(30)– نفسه، 162.

(31)– الطاهر الغول، مرجع سابق، ص 63.

(32)– محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، 157.

(33)– نفسه، ص 301.

(34)– نفسه، 313.

(35)– نفسه، 313.

(36)– نفسه، 376.

(37)– نفسه، 157.

(38)– نفسه، 155.

(39)– نفسه، ص 141، 142.

(40)– نفسه، ص 108.

(41)– نفسه، ص 191.

(42)– نفسه، ص213.